مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

أوراق نماء (١٢٩)

الفكر السنني

عند الشهيد إسماعيل راجي الفاروقي

عبد العزيز الإدريسي
باحث في قضايا التربية والتكوين

www.nama-center.com

الآراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز

ملخص الورقة

(١) موضوع الورقة:

يعتبر الشهيد إسماعيل راجي الفاروقي من أهم وأبرز الشخصيات التي بصمت مسيرة الإصلاح الفكري بمنهج تجديدي تأصيلي قل نظيره، وبرؤية تأسيسية استشرافية قل مثيلها، بل استلهم الكثير من المصلحين والمفكرين – مدارس وأشخاص – منه بعض أدبيات التفكير والتجديد والإصلاح والانبعاث.

ولذلك فالنموذج المعرفي والمشروع الإصلاحي للعلامة الفاروقي يعدُّ اليوم سفراً مفتوحاً أمام الباحثين والدارسين لاكتشاف السنن الحضارية، واستلهام القوانين الاجتماعية، والدروس التربوَية؛ للإصلاح والنهوض، والانبعاث الحضاري.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى معالجة قضية من أهم القضايا التي تميز النموذج المعرفي الذي أبدعه الشهيد إسماعيل الفاروقي، وهي قضية مراعاة الفكر السنني في الإصلاح والتغير والنهضة والانبعاث، وذلك من خلال بيان مفهومه عند الفاروقي وتوضيح أهميته في مشروعه المعرفي التجديدي، ورؤيته الإصلاحية المنبثقة من الذات الحضارية، وبيان أن المنظور السنني هو لب وجوهر المشروع العملاق الذي أطلقه الفاروقي: «أسلمة المعرفة»، بمعنى: إعادة صياغة المعرفة على أسس الرؤية الإسلامية ، والتي تعد جانبا أساسيًّا في بناء الأمة الإسلامية في الفكر والفعل والتصور والسلوك.

إنَّ استحضار المنظور السنني في النموذج المعرفي للفاروقي قمين بإعادة بعث هذا الفكر الرائد والرؤية وتفعيله على أرض الواقع، والذي سيسهم لا محالة في تكوين عقلية علمية منهجية مقاصدية، وتقديم معارف وقيم ونماذج وحلول جديدة لمشكلاتنا المعاصرة، يقول عمر عبيد حسنة، «وأنَّ محاولة التعرف على السنن، وحسن معها= هو الكفيل بالعودة إلى الموقع المفقود واسترداد الشهادة والقيادة التي نيطت بالأمة المسلمة» [(١)]، وفي ذات السياق نجد مترجم ومقدم كتاب «التوحيد مضامينه على الفكر والحياة» يؤكد هذا المعنى بقوله: «وتلخص أمر التغيير السنني الرشيد والفعال كله، في مقولة: إنَّ الأمة كانت ولا تزال بحاجة إلى حركة تغيير إصلاحية نابعة

(١) «حتى يتحقق الشهود الحضاري»، عمر عبيد حسنة، (ص/ ٧٦).

منها، تنقب في عمقها، وتتحلى بالوسطية ، وتعير الجوانب الروحية اعتبارا أكبر، وتعاير البعد المادي ذاته من توحيدية، وتتجاوز مستوى العمل النخبوي، إلى مستوى تأهيل الأمة كلها لتمثل مشروع الإصلاح الحضاري» [٢].

بل إنَّ العلّامة إسماعيل الفاروقي يؤكّد بأنَّ فهم مشروعه التجديدي لا يكون إلّا باستيعاب ثلة من التي يعدُّ الوعي بها شرطًا لتفهم الطرح المقدم، والوقوف على مبرراته، ومن أهم تلك الأوليات والتي جعلها الثانية الترتيب بقوله [٣]: «أما الأولية الثانية، فهي: تلك السنة الإلهية الثابتة التي لا تعرف التبديل ولا التغيير، التي تكاد القانون الحاكم لتاريخ الإنسان على الأرض، الواردة في قول الله – تعالى –: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: ٥٣]، وقوله – تعالى –: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ } [الرعد: ١١].

إنَّ هذا المنظورَ السننيَ المستلهم من الرؤية القرآنية، والمؤسس للنموذج المعرفي للفاروقي نجده مبثوثًا في كتاباته وإنتاجاته، يقول – رحمه الله تعالى –: «فإن سنن الله – تعالى – في الخلق، ومنطق الخلق، يقتضي إمكانية تحقيق غايته في الزمان والمكان في هذه الحياة الدنيا، فيما بين الخلق واليوم الآخر. ولا بدَّ أن يكون الإنسان فاعل الفعل الأخلاقي، قادرا على تغيير ما بنفسه، وعلى تغيير رفاقه ومجتمعه، وعلى تغيير بيئته الطبيعية، وأن تكون النفس والرفاق والمجتمع والطبيعة بالمقابل، قابلين للتغيير بتلقي الفعل الإنساني المؤثر. فهذه القدرة، وتلك القابلية شرط تجسيد السنن الإلهية، أو الأمر الإلهي التكليفي في النفس وفي الغير على حد سواء. ودون القدرة الإنسانية الأخلاقية تستحيل قدرة الإنسان على التصرف الأخلاقي، وتنخرم الطبيعة الغائية للوجود» [٤].

(٢) عناصر البحث وخطته:

المقدمة: أهمية الموضوع، وأهداف البحث وأسئلته.

المبحث الأول: حياة الفاروقي ومفهوم السنن وأهمية المنظور السنني عند الفاروقي.

المبحث الثاني: المقولات المنهجية المؤطرة لاعتماد المنظور السنني في المشروع الإصلاحي لدى الفاروقي.المبحث الثالث: منظومات فقه السنن وتفعيلها عند الفاروقي.

الخاتمة: وتشمل النتائج والتوصيات.

---

(٢) «التوحيد مضامينه على الفكر والحياة»، إسماعيل الفاروقي، ترجمة عمر السيد، (ص/ ٨).

(٣) نفسه، (ص/ ٣٠، و٣١، و٣٢ بتصرف).

(٤) «التوحيد مضامينه على الفكر والحياة»، الفاروقي، (ص/ ٥١).

(٣) الكلمات المفتاحية:

الفاروقي – الفقه – السنن – الفكر – التوحيد – الاستخلاف – الإنسانية – الحياة – الحضارة – الوجود – المعرفة – الوجدان – السلوك – الزمان –.

مقدمة

منذ ما يزيد على قرنين والمسافة تتسع بين المسلمين وبين أدوارهم الحضارية، المتمثلة في الريادة والشهادة والاستخلاف وإلحاق الرحمة بالناس [٥]، وذلك راجع لأسباب كثيرة [٦]، ممَّا أشاع شعورا سلبيًّا عند المسلمين والضعف والقابلية للاستعمار، فانبرى لمعالجة هذا الواقع الكثير من المصلحين – أفرادا ومؤسسات – للإجابة على أسئلته والبحث في مشكلاته وحل معضلاته.

ومن بين أهم المؤثرين في حركة الإصلاح المعاصرة، نجد الدكتور الشهيد إسماعيل راجي الفاروقي، رائد المدرسة الفكرية (إسلامية المعرفة)، و(أسلمة النموذج المعرفي)، أو (ضرورة التأصيل والتكامل المعرفي)؛ لأنَّ معضلة المسلمين في نظره معضلة فكرية لها تجليات على كل مناشط الحياة ومجالاتها.

وقد تنوَّعت الدراسات والبحوث في فكر الفاروقي في الجامعات والمراكز والمعاهد، ولكن لم أجد باحثًا اشتغل على المنظور السنني عند الفاروقي، أو حاول نفض الغبار على هذا الجانب المهم والمحوري في المشروع الإصلاحي عند الفاروقي.

* موضوع الورقة وأهدافها:

– موضوع الورقة:

تبحث الورقة في الفكر السنني عند الفاروقي، وذلك راجع إلى غياب الدراسات التي تبين موقف الدكتور إسماعيل الفاروقي من اعتماد المنظور السنني في التغيير والإصلاح؛ لذا تسعى الورقة إلى الكشف عن منهج الدكتور إسماعيل الفاروقي في توظيف الفكر السنني، من خلال مجموعة الكتب والمقالات التي ألفها.

* أهداف الورقة:

تسعى هذه الورقة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

(١) بيان مفهوم الفكر السنني وأهميته.

---

(٥) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، العلامة أبو الحسن الندوي.

(٦) «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟»، الأمير شكيب أرسلان.

(٢) إبراز مركزية المنظور السنني في المشروع الإصلاحي عند إسماعيل الفاروقي.

(٣) الكشف عن المنظومات السننية عند إسماعيل الفاروقي، وسبل تفعيلها في الواقع المعاصر.

المبحث الأول: حياة الفاروقي ومفهوم السنن وأهمية المنظور السنني عند الفاروقي

(١) حياة إسماعيل راجي الفاروقي [٧]:

ولد راجي الفاروقي في مدينة يافا في فلسطين المحتلة (عام ١٩٢١م)، وبدأ دراسته الأولى بالمسجد والبيت، على يد والده الذي كان قاضيا شرعيًّا. وتابع دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس الدومينيكان الفرنسية، ثم حصل على الدرجة الجامعية الأولى في الفلسفة من الجامعة الأميركية في بيروت. وبعد ذلك هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على شهادتي الماجستير في فلسفة الأديان؛ الأولى من جامعة إنديانا (عام ١٩٤٩م)، والثانية من جامعة هارفارد (عام ١٩٥١م)، وفي (عام ١٩٥٢م) حصل على الدكتوراه من جامعة إنديانا. وفي ليلة (١٨ رمضان ١٤٠٦ هـ. = ٢٧ ماي ١٩٨٦ م) استشهد إسماعيل الفاروقي وزوجه الدكتورة لمياء الفاروقي! في الولايات المتحدة الأمريكية؛ بسبب مواقفه الصلبة في الدفاع عن قضيته الأولى فلسطين، وتعريته للصهيونية وجذورها العنصرية، وبسبب عمله الدعوي في نشر الإسلام وثقافته، وتصحيح صورة الإسلام في المجتمع الأميركي. غير أن فكر الفاروقي لـم يمت، بل شكل فكره زاداً للباحثين في شتى المراحل، وكانت وفاته في ظروف شديدة الغموض، حيث ثبت أن الاغتيال لـم يكن أبدا بدافع السرقة.

(٢) عرض موجز لمؤلفات الفاروقي:

لا يختلف اثنان على الفاروقي ، كان عالماً موسوعيًّا فذًّا، غزير الكتابة، فقد آل على نفسه ألا ينام إلا إذا عشر صفحات على الأقل [٨]، يتقن العربية، والفرنسية، والإنجليزية، يكتب باللغات الثلاث، ويتحدث بها، فأبدع الحضارة الإسلامية كتابا ضخما قيما شاركته فيه زوجته، هو «أطلس الحضارة الإسلامية» [٩] الكتاب الذي «ولد يتيم الأبوين» [١٠] على حد تعبير مقدم الكتاب الدكتور هشام الطالب؛ لأنَّ الدكتور إسماعيل وزوجه استشهدا والكتاب لا يزال في مطبعة ماكميلان في الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(٧) كثيرة هي المجلات والدراسات والمواقع– بلغات مختلفة– التي تعرضت لحياة الفاروقي من قبيل: (www.veecos.ne)، بالإضافة إلى «مجلة إسلامية المعرفة» التي خصصت (عددها/ ٧٤)، (سنة ٢٠١٣) عن الفاروقي.

(٨) «إسلامية المعرفة»، (العدد/ ٧٤)، (ص/ ٧) ، وتجدر الإشارة إلى أنَّ أغلب تآليفه باللغة الإنجليزية.

(٩) صدر هذا الكتاب بست لغات قبل أن يصدر باللغة العربية (سنة ١٩٩٨ م).

(١٠) «أطلس الحضارة الإسلامية»، إسماعيل ولمياء الفاروقي، (ص/ ١٤).

وفي دراسة مقارنة للأديان ألف الفاروقي «الأطلس التاريخي لأديان العالم»، كما ألف كتاب «الأخلاق المسيحية»، الذي نقض – وليس نقد – فيه الأساس النظري والتاريخي لهذه الديانة من خلال مصادرها الأولى، حاول عدد من القساوسة في جامعة ماكجيل؛ التي كتب الفاروقي الكتاب في رحابها أن يمنعوا نشره، قائلين إنه الإيمان المسيحي في قلوب قرائه [١١]. وفي التعريف بالظاهرة الصهيونية، كتب الفاروقي ثلاثة كتب هي «الإسلام ومشكلة إسرائيل»، و«أصول الصهيونية في الدين اليهودي»، و«الملل المعاصرة في الدين اليهودي».

أما في مجال أسلمة المعرفة؛ فالفاروقي رائدها ومبدع أسسها ومقولاتها، من أجل صياغة العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة صياغة إسلامية، وقد شخص الفاروقي بدقة ومنهجية مشكلة المسلمين، والمرتبطة أساسا بنظامهم الفكري ونموذجهم المعرفي، فاضطلع إلى مقترحات للتجاوز ورؤى للإصلاح، فكتب: «التوحيد: مضامينه على الفكر والحياة»، والذي اعتبره مترجمi إلى اللغة العربية الدكتور عمر «نسيجا وحده» [١٢]، بالإضافة إلى «تبرير الخير: الجوانب الميتافيزيقية والإبستمولوجية للقيم» [١٣]، وكتب «الإسلام والفن»، به العديد من المقالات والبحوث والترجمات [١٤].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ أغلب تآليفه باللغة الإنجليزية لـمَّا تُترجم بعد إلى اللغة العربية.

(٣) الفاروقي والعمل المؤسساتي:

لقد آمن الفاروقي منذ الوهلة الأولى بأنَّ خدمة المعرفة والإبداع الأكاديمي فيها وضمان استمرارية الإصلاحية لا يتأتى إلا من خلال العمل المؤسساتي؛ لذلك عمل على مأسسة مشاريعه المعرفية، وكان رائدا بحق هذا المجال، حيث ناضل سنوات طويلة في سبيل أن يكون للإسلام موقع في الأكاديمية الأمريكية للأديان ونجح في ذلك، وعمل رئيسا لقسم الإسلام في الأكاديمية، وأسهم في إنشاء جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا (AMSS)، وكان أول رئيس لها، وساهم في إنشاء مؤسسة الوقف الإسلامي

---

(١١) «مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية»، المجلد الحادي والعشرون، العدد الأول، (ص/ ٤٤٥، و٤٤٨)، د عماد الشريفين.

(١٢) «التوحيد مضامينه على الفكر والحياة»، الفاروقي، ترجمه د عمر السيد، (ص/ ٤).

(١٣) وهو عبارة عن أطروحة نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة إنديانا (سنة/ ١٩٥٢).

(١٤) أغلب مقالاته نشرتها مجلة المسلم والمعاصر، وقد ترجم الفاروقي كتاب «حياة محمد عليه الصلاة والسلام» إلى الإنجليزية، لمؤلفه حسنين هيكل.

أمريكا الشمالية (NAIT) ، وعمل مديرا لها، وفي إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي (IIIT)، وعمل مديرا ورئيسا له، وكل هذه المؤسسات استمرت ولا تزال في عملها [١٥].

(٤) مفهوم السنن:

السنن جمع سنة والسنة لغة: مأخوذة من (سن) ولها أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة ويسر، «والأَصل فيه الطريقة والسيرة» [١٦]، وجاء في التعريفات أنَّ السنة في اللغة هي: «الطريقة، مرضية كانت أو غير مرضية» [١٧]. وقال الإمام المناوي: «السُّنَّة (بالضم): طريقة المصطفى التي كان يتحراها، وسنة الله طريقة حكمته وطريقة طاعته» [١٨]. والسنة هي: «الطريقة المستقيمة والمثال المتبع» [١٩].

أمَّا السنن اصطلاحا ، فلها علاقة واضحة بالمعنى اللغوي، والمراد بها اصطلاحا هنا: «ما سنَّه الله في الأمم وقائعه، وأصل السنن جمع سنة: وهي الطريقة المستقيمة» [٢٠].

والسنن، بحسب سيد قطب – رحمه الله – هي: «النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله وأن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السابقين» [٢١].

وعلى هذا الأساس؛ فإنَّ السنن تعني: «الأنظمة والنواميس والقوانين الثابتة، التي أودعها الله – تعالى – في كل مفردة كونية؛ لكي تؤدي وظيفتها الذاتية والكونية بانتظام» [٢٢].

(٥) أهمية المنظور السنني عند الفاروقي:

يقول الشهيد سيد قطب في تفسيره وتدبره لقوله – تعالى –: {قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ}: «والقرآن يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض. يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور. فهم ليسوا بدعا في

---

(١٥) «مجلة إسلامية المعرفة»، (العدد/ ٧٤)، (ص/ ٨).

(١٦) «لسان العرب»، ابن منظور، (١٣/ ٢٢٠).

(١٧) «التعريفات»، علي الجرجاني، (ص/ ٤٠).

(١٨) «التوقيف على مهمات التعاريف»، محمد المناوي، (١/ ٤١٥).

(١٩) «مفاتيح الغيب»، محمد الرازي، (٤/ ٣٩٢).

(٢٠) «فتح القدير»، الشوكاني، (٢/ ٢٨).

(٢١) «في ظلال القرآن»، سيد قطب، (١/ ٤٨٠).

(٢٢) «مقدمة في المنظور السنني لدراسة السيرة النبوية»، الطيب برغوث، (ص/ ٨٥٧).

فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنَّما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، و لم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين؛ ليـنالوا النصر والتمكين، الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول» [٢٣].

ويقول عمر عبيد حسنة: «وإنَّ محاولة التعرف على السنن وحسن التعامل معها هو الكفيل بالعودة إلى المفقود، واسترداد الشهادة والقيادة التي نيطت بالأمة المسلمة» [٢٤].

أما الشهيد إسماعيل الفاروقي؛ فإنَّه يعتبر المنظور السنني منظورا مرجعيًّا ومحوريًّا ووظيفيًّا في النهضة والانبعاث من جديد؛ لأنَّه يضبط الصيرورة الحضارية لحركة الاستخلاف البشري من منطلق استيعاب الجزئيات في إطار منظومات كلية، يقول: «إنَّ وحدة الحقيقة، أو طبيعة قوانين المخلوقات والسنن الإلهية، تفرض أن باب في طبيعة الخلق، أو في أي جزئية منه لا يمكن أن يغلق؛ وذلك لأنَّ سنن الله في خلقه غير محدودة. فمهما عرفنا ومهما تعمقنا في هذه المعرفة، فلا يزال هناك دائما المزيد منها ليكتشف. ومن هنا: فإنَّ الاستعداد لقبول الجديد البراهين، والإصرار على متابعة البحث هي خصائص لازمة للعقل المسلم الذي قبل مبدأ وحدة الحقيقة فالموقف لكل الدعاوى الإنسانية، والبحث الدائب وراء قوانين الطبيعة التي لا تكون نهائية أبدا، هما في ذات الوقت شرطان لازمان للمنهج الإسلامي وللعلم الأصيل.ومن هذا المنطلق؛ فإن أقوى حكم يبقى دائما مؤقتا، ويظل صالحا حتى تظهر أدلة جديدة تشكك فيه أو تفنده أو تؤكد صحته. إذن: فإن أعلى حكمة، وأوثق قرار يجب أن يعقبه هذا التأكيد، والله أعلم» [٢٥].

* وفي ذات السياق، وبعد أن أورد جملة من الآيات القرآنية، قسم هذه السنن إلى نوعين:

«والإسلام يؤكد كل التأكيد أن لوجود الإنسان سببا وأن هذا السبب هو عبادة الله تعالى. إنَّ الإرادة الإلهية على ضربين:

---

(٢٣) «في ظلال القرآن»، سيد قطب، (١/ ٤٥٠).

(٢٤) «حتى يتحقق الشهود الحضاري»، عمر عبيد حسنة، (ص/ ٧٦).

(٢٥) «أسلمة المعرفة المبادئ العامة وخطة العمل»، إسماعيل الفاروقي، (ص/ ٥٤).

(١) ضرب متحقق حتما يتمثل في السنن الإلهية التي يجري الكون على أساسها، وهي قوانين الطبيعة. وهذه السنن ثابتة ومتحققة على مستوى الكون كله. ومن الممكن أن تفهم عن طريق الوحي أو عن طريق العقل وقد أوجب الله على الإنسان أن يبحث عنها وأن يفهمها ويقننها من أجل المعرفة ثم يستخدمها لصالحه.

(٢) أما الضرب الثاني من القوانين الإلهية: فيتحقق فقط عن طريق الحرية والاختيار، أي عندما تتحقق في وضع يكون فيه تحقيقها أو عدم تحقيقها إمكانيتين متميزتين. وتلك هي القوانين الخلقية. إنها تتعايش مع قوانين الطبيعة، بمعنى أنها تتحقق دائما في سياق من الأشياء والأشخاص والعلاقات في العالم الواقعي، لكنها تنتمي إلى مختلف عن الواقع المحتوم. إنها عملية أولويات. فأن تصبح جزءا من الموقف الواقعي وأن تتحقق من خلاله أولاً، يعتمد على تحقق ذلك الموقف، أو على المتطلبات الخاصة بهذه القوانين الخلقية. إنها تتطلب ممارسة الشخص ممارسة حرة [٢٦]. بل وهو يحدد أهداف خطة العمل لأسلمة المعرفة يجعل من المقصد السنني هدفًا مركزيًّا: – في –:

(١) إتقان العلوم الحديثة.

(٢) التمكن من التراث الإسلامي.

(٣) إقامة العلاقة المناسبة بين التصور الإسلامي وبين كل مجال من مجالات المعرفة الحديثة.

(٤) الربط الخلاق بين التراث الإسلامي والمعرفة الحديثة.

(٥) الانطلاق بالفكر الإسلامي في المسار الذي يقوده إلى تحقيق سنن الله – سبحانه وتعالى – على أرضه [٢٧].

وينصص الفاروقي على خصائص السنن [٢٨]، بقوله: «فسنن الله – تعالى – التي فطر الخليقة عليها، التي لا تتبدل ولا تتغير، تجعلها تسير على النهج الذي تسير عليه. ولا تستطيع الطبيعة أن تنتهك القانون الطبيعي، ولا أن تفعل غير الوفاء الكامل بمتطلباته. أما الإنسان الذي تحلى بالشجاعة وقبل حمل الأمانة، فهو قادر على طاعة الأمر الإلهي التكليفي، وعلى عصيانه، بدليل قول الله – تعالى –: { إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [الزمر: ٤١].

---

(٢٦) نفسه، (ص/ ٥٥، ٥٦).

(٢٧) نفسه، (ص/ ٧٠).

(٢٨) «التوحيد مضامينه على الفكر والحياة»، الفاروقي، (ص/ ٤٣).

المبحث الثاني: المقولات المنهجية المؤطرة لاعتماد المنظور السنني في المشروع الإصلاحي لدى الفاروقي

في الخطوة الخامسة من الخطوات الضرورية لأسلمة المعرفة [٢٩]، يطرح الفاروقي ثلاثة أسئلة رئيسية تطرح وأن نجد لها جوابا على حد تعبيره:

– الأول: ما هي مساهمة الإسلام ابتداء من القرآن الكريم، وانتهاء بالتراث الذي توصل إليه المجددون المحدثون في جملة القضايا التي يثيرها هذا العلم؟

– والثاني: كيف تتطابق أو تتعارض مساهمات التراث الإسلامي مع ما أنجزه هذا العلم؟ وأين وصل التراث في مستوى رؤية هذا العلم وآفاقه وأين قصر عنها أو تخطاها؟

– والثالث: بعد معرفة المجالات والقضايا التي كانت مساهمة التراث الإسلامي فيها قليلة أو معدومة، في اتجاه يحسن أن تبذل جهود المسلمين مستقبلاً لكي تسد هذا النقص وتعيد صياغة المشكلة وتوسع مدى الرؤية؟

إنَّ هذه الأسئلة تشكل بمجموعها رؤية معرفية ومنظورا سننيًّا للفكر بحاجة إلى أن نكتشفه، ونفهمه، ونؤسس عليه كـ آلية للتأصيل والتفعيل، هذا الفكر السنني يمكن الجزم بأنَّ نشأته تزامنت مع ظهور الإسلام كرسالة إلهية خاتمة للرسالات السماوية، غير أنَّه ظل ضامرا في الفكر الإسلامي، وهذا المنظور السنني مؤطر من خلال ثلاث مقولات منهجية:

(١) المقولة الأولى: مقولة قرآنية: من الخطاب القرآني وهي قوله – تعالى –: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ – ٥].

(٢) المقولة الثانية: مقولة نبوية: من الخطاب النبوي وهي مقولة (التتميم) التي وردت في الحديث النبوي المعروف «إنَّما بعثت لأُتمم حسن الأخلاق» [٣١].

(٣) المقولة الثالثة: مقولة اجتماعية: من الخطاب الاجتماعي، وهي مقولة (الجاهلية)، انطلاقًا من هذه المقولات المنهجية تحددت في ثلاثة مفاهيم أساسية في بناء المنظومة السننية عند الفاروقي المؤسسة على مبدأ والمنبثقة منه، فالتوحيد يعني عنده: الغائية التي ترفض فكرة عبثية الكون أو صدفيته أو لهو الخلق، فالفاروقي –

---

(٢٩) نفسه، (ص/ ٧١).

(٣٠) نفسه، (ص/ ٧٥).

(٣١) «الموطأ الإمام»، مالك بن أنس، (رقم/ ١٦٠٩).

الله – يؤكد على أن مفهوم الرب هو نواة الخبرة الدينية [٣٢]، كما يؤكد على مركزية المسلم فيفهم مراد الله وبناء تصوره المعرفي والعقدي، هذه المفاهيم، هي: (١) القطيعة. (٢) التواصل. (٣) التجديد. بدأت تنازليًّا وانتهت تصاعديًّا.

فمقولة (الجاهلية) جاءت لكي تعبر عن القطيعة المعرفية والتاريخية والقيمية لمرحلة زمنية ينبغي الانقطاع والانعطاف عليها، وعدم الانطلاق منها. ولهذا أُطلق عليها وصف الجاهلية وهو من أشد الأوصاف العدمية التي تسلب خاصية التمدن والآدمية. أما مقولة (التتميم) ؛ فهي تعطي معنى التواصل والاتصالية في نطاق مكارم الأخلاق وهي الفضائل والآداب والنظم والأعراف وكل النماذج الحميدة والنافعة للإنسان والجماعة والأمة، التي تبقى خالدة مع الإنسان في كل مراحله وأطواره وأزمنته. وإذا كانت الشريعة الإسلامية – كما تقرر في أصول الدين – هي ناسخة للشرائع التي قبلها بمعنى عدم جواز التعبد بها؛ إلا أنَّ هذا النَّسخ – حسب هذه المقولة – لا يشمل مكارم الأخلاق [٣٣]. كما أنَّ هذه المكارم لا تنحصر بالشرائع والرسالات السماوية، وإنَّما لها خاصية التعميم بما يشمل جميع المكارم الحميدة في المجتمعات الإنسانية كافة.

ومقولة (اقرأ) هي دعوة إلى العلم، وأنَّ الدين دعا إلى العلم قبل دعوته لأي شيء آخر؛ لأنَّ كل شيء في الإسلام يبدأ من العلم ويتأسس عليه. وكل دعوة إلى العلم هي دعوة للابتكار والتجديد والتطوير، كما أنَّ (اقرأ) هي إقرار بنفي الجهل بكافة صوره وأشكاله.

هذه المقولات الثلاث في ترابطها وتكاملها [٣٤]، هي أشبه ما تكون بقوانين المنهجية، فالقطيعة قاعدة مع وجود قاعدة التواصل، والتواصل قاعدة نسبية مع وجود قاعدة القطيعة، ولا تكفي القطيعة والتواصل بل هناك حاجة إلى قاعدة التجديد [٣٥].

---

(٣٢) «التوحيد مضامينه على الفكر والحياة»، الفاروقي، (ص/ ٥٥).

(٣٣) «من التراث إلى الاجتهاد»، (الفكر الإسلامي وقضايا الإصلاح والتجديد)، زكي الميلاد، (ص/ ٢٤٢).

(٣٤) «من التراث إلى الاجتهاد»، (الفكر الإسلامي وقضايا الإصلاح والتجديد)، زكي الميلاد، (ص/ ٢٤١ – ٢٤٤) بتصرف.

(٣٥) نفسه، (ص/ ٢٤٤).

المبحث الثالث: منظومات فقه السنن وتفعيلها عند الفاروقي

إذا كانت أز م ..ة الأ م..ة اليوم أزمة حضارية تتمظهر في كل مناشط الحياة ومجالاتها؛ فإنَّ الجزئية التي تقارب الأزمة لا تسعف في فهمها وتجاوزها؛ لذلك كانت كتابات الفاروقي أكثر شمولية واستيعابا؛ لاعتمادها المنظور السنني وفق منظومات سننية ثلاث، وبالتالي فهو يرجع كل تمظهرات الأزمة التعليمية والفكرية والسياسية والأخلاقية والعقدية والاقتصادية، يرجعها إلى إطار واحد يجمعها، هو مشكلة أو أزمة الحضارة، التي هي في حقيقتها مجموع كل هذه الأزمات، ومحكومة بقانون واحد هو مشكلة الحضارة وما تخضع له من سنن. وإنَّ عن التعبير عن حقائق الإسلام ومقاصده الكبرى، وتكريس الحرفية التجزيئية والتنافرية السلوكية [٣٦]، وحرمان الوعي من النزعة الاجتهادية التجديدية، وحرمان حركة النهضة الإسلامية المعاصرة من الشروط المتكاملة للتأصيل، لدليل على غياب هذه السننية في مشاريع الإصلاح المعاصرة.

(١) منظومة فقه سنن التوحيد:

يعتبر الفاروقي التوحيد جوهر الخبرة الدينية [٣٧]، ولباب الإسلام [٣٨]، ويؤكد بأنَّ الإسلام هو جوهر الحضارة الإسلامية، ومن الثابت أيضاً أنَّ جوهر الإسلام هو: التوحيد، أي: الشهادة بأن الله – تعالى – هو الواحد الأحد، المطلق الخالق المتعالي رب كل ما في الوجود ومالكه [٣٩]، في ذات السياق يبين الفاروقي أنَّ: «الحضارة الإسلامية تستمد هويتها من التوحيد. فهي الوشيجة التي تربط بين مختلف مكوناتها، على نحو يشكل منها جسداً عضوياً متكاملاً، نسميه الحضارة. ويربط التوحيد بين العناصر المتباينة، ويصبغها بصبغته، ويعيد صياغتها على نحو تتناغم فيه مع بعضها البعض، ويشد بعضها أزر بعض. ويحول ذلك الجوهر تلك العناصر، دون أن يغير طبيعتها بالضرورة، ويمنحها شخصيتها الجديدة كمقومات له. وقد تختلف درجة التحول الذي يحدثها هذا الجوهر في على متصل يمتد بين اليسيرة والجذرية. والمراد بالتحويل اليسير هو التأثير على شكل العنصر. أما التحويل فهو المتعلق بالتأثير على وظيفته؛ لأنَّ وظيفة العنصر هي التي تشكل العلاقة بينه وبين ذلك الجوهر. وهذا هو السبب

---

(٣٦) «الفعالية الحضارية والثقافة السننية»، الطيب برغوث، (ص/ ١٤).

(٣٧) (ص/ ٣٧).

(٣٨) (ص/ ٥٩).

(٣٩) (ص/ ٦٣).

في إنشاء المسلمين علم التوحيد، واعتبار علوم المنطق وعلم المعرفة وعلوم ما وراء الطبيعة والأخلاق فروعاً له وعموما فإنَّ منظومة فقه سنن التوحيد تشمل المبادئ الأساسية التالية:

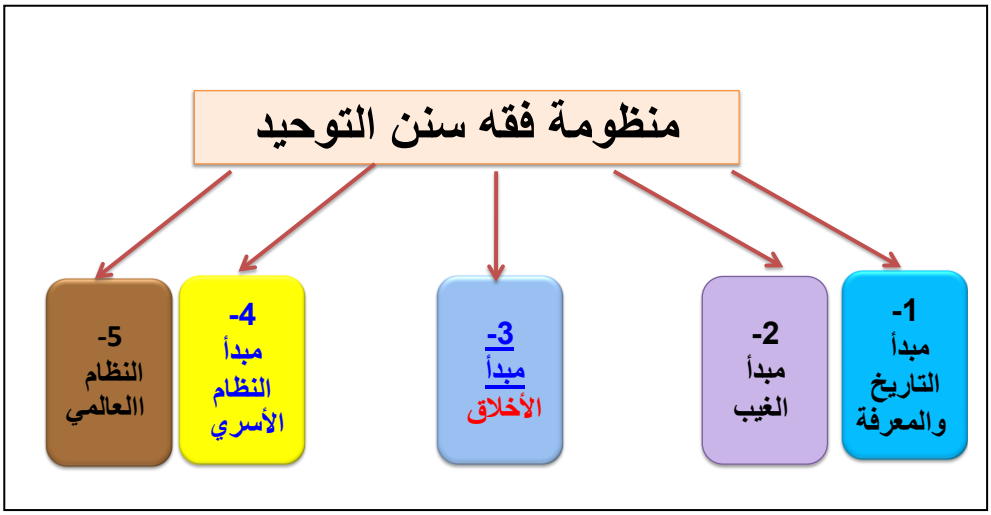

(١) في مبدأ التاريخ: يلزم التوحيد الإنسان بأخلاقية للعمل، والتي يعتبر شرط الاستحقاق والمتمثل في المعادلة الاتية:

النية + القدرة + العمل= تغيير مسار الزمان والمكان، أي: صناعة التاريخ [٤١].

ومبدأ المعرفة عند الفاروقي يفيد أن التوحيد في الإسلام يعني اليقين، واليقين هو بلوغ الحقيقة وهو عكس يفهم من «الإيمان» في المشهد الفكري الغربي الذي يعنى الشك والتشكيك فعلى العكس من الإيمان المسيحي الإيمان الإسلامي هو حقيقة يصل العقل إليها عن طريق اليقين، فالإيمان مقولة معرفية في الإسلام [٤٢]؛ لأنه يرتبط

---

(٤٠) (ص/ ٦٣).

(٤١) (ص/ ٨٧، و ٩٠).

(٤٢) (ص/ ٩٨).

بالمعرفة وبصحة الأخبار التي يتأسس عليها، لا سيما مع مصاحبة القيمة الإيمانية: للعقل والتعقل والعقلانية التي هي أدوات المعرفة وهي في الوقت نفسه صادرة عن الاعتقاد والوحي.

(٢) مبدأ الغيب:

يؤكد الفاروقي على أنَّ البحث في سنن الله – تعالى – في النفس وفي المجتمع، يستدعي إعادة تأسيس الإنسانية والاجتماعية والانبعاث الحضاري، و إذا كان الوجود كله هو في حقيقة أمره تجليا للسنن التي هي من أمر – تعالى – والممثلة لإرادته التي فطر الموجودات الطبيعية عليها؛ فإنَّ الكون يعتبر في نظر المسلم مسرحا حيًّا، كل حركة فيه وعليه إنَّما هي من صنع الله وبإرادته. والمسرح نفسه وما عليه قابل للتفسير بتلك السنن، ومن منطلقها (٤٣).

ذلك أنَّ ما فطر الله عليه الطبيعة ليس إلا السنن التي لا تتبدل ولا تتغير التي أنعم الله بها عليها. يقول – سبحانه وتعالى –: {سُنَّةَ مَن قَدْ أَرسَلْنَا قَبْلَكَ من رُّسُلنا ولا تَجِدُ لسُنَّتنا تَحْويلاً} [الإسراء: ٧٧]. ويقول: {مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ من حَرَجٍ فيما فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ في الذين خَلَوْا من قَبْلُ وكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً} [الأحزاب: ٣٨]، ويقول: {سُنَّةَ اللهِ في الذين خَلَوْا من قَبْلُ ولَن تجد لسُنَّةِ اللهِ تَبْديلاً} [الأحزاب: ٦٢]، ويقول: {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِه وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ٨٥]، ويقول: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠]، ويقول: {اسْتِكْبَاراً في الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِه فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً} [فاطر: ٤٣]. فإنَّ البحث في سنن الله – تعالى – في النفس وفي المجتمع، يستدعي إعادة تأسيس العلوم الإنسانية والاجتماعية، وإذا كان الوجود كله هو في حقيقة أمره تجليا للسنن التي هي من أمر الله – تعالى – والممثلة لإرادته التي فطر الموجودات الطبيعية عليها؛ فإنَّ الكون يعتبر في نظر المسلم مسرحا حيًّا، كل حركة فيه وعليه إنَّما هي من صنع الله وبإرادته. والمسرح نفسه وما عليه قابل للتفسير بتلك السنن، ومن منطلقها.

(٣) مبدأ الأخلاق (٤٤):

يبدع الفاروقي في هذا المبحث من حيث تفعيل منظومة سنن التوحيد في واقع الناس من خلال ثمانية مبادئ من مقترب أخلاقي حضاري، وهي:

---

(٤٣) (ص/ ١١٢).

(٤٤) ينظر بتفصيل من (ص/ ١٢٥) إلى (ص/ ١٥٤).

الأول: إنسانية الإسلام.

الثاني: الغاية من خلق الإنسان.

الثالث: براءة الإنسان. من الخطيئة المسيحية.

الرابع: الخلق على صورة الله.

الخامس: التفعيل، ربط الإيمان بالعمل الصالح.

السادس: الأممية، التعاون الإنساني.

السابع: العالمية، الله رب العالمين جميعا.

الثامن: إيجابية الحياة الدنيا، ضد الرهبنة والانعزال والمبالغة والغلو ...

(٤) مبدأ النظام الأسري:

تعاني مؤسسة الأسرة معاناة كثيرة، ممَّا أدى إلى أفول نجمها في واقع الإنسانية المعاصر، وعدم القدرة على القيام بأدوارها الحضارية، وذلك لثلاثة أسباب رئيسة:

(١) التزييف الشيوعي لمفهوم المساواة.

(٢) تآكل الرابطة الأسرية في العالم الغربي.

(٣) دور علماء ما يسمى بعلم أصل الإنسان في إسقاط معطيات دراساتهم على عالم الحيوان على عالم الإنسان [٤٥].

في ذات السياق يطارح الفاروقي جملة من المشكلات المعاصرة المعوقة لدور الأسرة في الإصلاح بمنهج قرآني؛ ليؤكد في خاتمة هذا المبحث على أن من واجب كل إنسان رجلًا أو امرأة، على قدم المساواة، النهوض عبادة الله تعالى، وتحقيق النفع للأمة بأقصى قدر تسمح به مواهبه وقابلياته. والقيام بهذه المهمة الآن ضرورة تفوق وقت مضى بالنظر إلى ما تعانى منه الأمة من وهن، ومن سبات ... فالأمة لا تستغني عن جهد أحد من أبنائها. وتستدعى ظروفنا الحاضرة أن تكون كل امرأة صاحبة مهنة، في جزء من حياتها على الأقل. ومن الممكن أن تكون تلك الفترة أثناء دراستها، أو أثناء قيامها بدور الأمومة، فيما لو كانت تعيش ضمن أسرة كبيرة ممتدة، أو بعد مرحلة الإنجاب وتربية النشء [٤٦] ، ونلاحظ أنَّ الفاروقي يؤكد على محورية دور المرأة، ويوجهها إلى أن تقوم بدورها غير منقوص: «ومن هنا: فإنَّ المهمة الأولى التي ينبغي على المرأة المسلمة أن تركز عليها، هي التدريب لتغدو

---

(٤٥) «التوحيد»، (ص/ ٢١٥، و٢١٦).

(٤٦) نفسه، (ص/ ٢٢٨).

عاملة، من أجل إيقاظ عقلها، وتغذيته با لحكمة الإسلامية، وإكسابها انضباطًا ومرانا ذاتيين في العمل الإسلامي، وتحقيق تأهلها النفسي، لما قد تسنده إليها الحركة الإسلامية من عمل إسلامي. والمرأة مطالبة في هذا الصدد مهارات بث الهمة في غيرها من المسلمين، وتعليمهم، وتعبئتهم لخدمة دين الله – تعالى –. وعليها أن تسعى لتنمية المهارات المطلوبة للعمل الاجتماعي على مستوى القرية والمدينة، لتغدو قادرة عبر عملها الاجتماعي على إرشاد من البشر إلى واجبهم الإسلامي، ومساعدتهم بالتعليم وبالأسوة الحسنة، وأداء ما عليها من واجبات بصفتها مسلمة، لله – تعالى – وللأمة. والواقع أنَّ كل مجالات النشاط الإنساني مفتوحة أمام المرأة المسلمة، وبحاجة إليها. بل إنَّ مهن يمكن أن تكون حكرا على المرأة بكاملها. والمجتمع الإسلامي في أمس الحاجة، إلى المرأة الإسلامية العاملة، وبدرجة تفوق كل ما يتصوره أي جهد تعبوي معاصر [٤٧].

(٥) مبدأ النظام العالمي:

يبين الفاروقي أن من فقه سنن التوحيد هو استيعاب مبدأ النظام العالمي بناء على ثلاثة أبعاد هذا المبدأ بإضاءة معرفية على:

(أ) الأخوة العالمية: كما تجسدت في عهد المدينة المنورة؛ لأنَّ الدين ليس منظورا انكفائيًّا، ولا هو الإنسانية المبنية على مبدأ حصري آسن ومغرض [٤٨]، بل هو الرابطة المفتوحة للإنسانية جمعاء، فالله – تعالى – البشر قبائل وأمما وشعوبا من أجل أن يتعارفوا ويتعاونوا فيما بينهم. يقول الله – تعالى –: {يا أَ يُّـها النَّاس إنَّا مِّن ذَكَر وأُنثَى وجَعَلْناكُمْ شُعوباً و قَـبائل لـ تـعارفُوا إنَّ أَكْرمَكُمْ عندَ الله أَ تْـقاكُمْ إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ} [٤٩]، الدولة الإسلامية للشريعة. والدولة، بكلَ مؤسساتها مجرد منفذ للقوانين المستقاة منَ الشريعةَ. والدولة مكلفة تلك الشريعة الربانية بمهمة السعي إلى تحويل العالم بما فيه الجنس البشرى ذاته، إلى وضعية تحاكى النموذج، أو التكليفية التي أوحى الله بها في القرآن الكريم.

ومعنى ذلك، أنَّ الدولة الإسلامية ليست مكلفة بأن تضم طوائف مسيحية ويهودية، وطوائف أخرى كوحدات تأسيسية في بنيتها فحسب، بل بأن تضم الجنس البشرى كله. ومن هنا كان من الضروري أن تتسع بنيتها

---

(٤٧) نفسه، (ص/ ٢٢٨).

(٤٨) «التوحيد»، (ص/ ٢٨٩).

(٤٩) الحجرات الآية ١٣.

لطريقة للعيش المشترك، تحيا في ظلها كل الجماعات في سلام، وتتسابق في الصلاح والخيرات، وتتفاعل فيما أساس من الاحترام المتبادل. وتوفرت كل تلك المقومات بدستور الدولة الإسلامية [٥٠].

(ب) نظام السلام الإسلامي الجامع: النظام العالمي الجديد الذي يدعو الإسلام إلى قيام، نظام سلام، هو وجوب: إزالة الحرب والعداوة من الأرض إلى الأبد، بسلام عام ومفتوح للجنس البشرى كله بأفراده وجماعاته [٥١]. فالله – تعالى – يأمر المسلمين أن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [البقرة: ٢٠٨]. ويأمرهم بدعوة البشرية كلها إلى السلام، والاستجابة للدعوة إليه. يقول الله – تعالى –: {وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ٦١].

(جـ) قانون الأمم الإسلامي، يؤكد الفاروقي الفاروقى في هذا البعد الفكري السنني على الطابع التمييزي لصالح غير المسلمين في ظل السلام الإسلامي، بمضامينه المعرفية فيما يتعلق بصيانة حرية العقيدة عن أي شبهة الدين، فيقول: « من المحرم شرعا السعي إلى إدخال أحد في الإسلام بالإكراه، أو بالغش، أو الإغراء، أو الرشوة. ويؤكد التحريم القرآني القاطع لأي إكراه في الدين [٥٢]، أنَّ لعنة الله – تعالى – على من يكره غيره أو يرشوهم ليعتنقوا الإسلام. يقول الله – تعالى –:{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦]. بل تصل الشريعة الإسلامية إلى هو أبعد من ذلك، حيث تهدر إسلام من يتحول إليه بمثل تلك السبل المحرمة، ولا ترتب عليه أية آثار على وفى حالة نشوب نزاع ضمن مجريات المعاملات اليومية بين مواطن جديد في الدولة الإسلامية، ومواطن من أهالي البلاد الأصليين؛ فإنَّ كلًّا من المدعى والمدعى عليه يتمتع بحق الاحتكام إلى شرعة أمته، وتلتزم المحكمة التي المنازعة باحترام هذا المبدأ والحكم استنادا إليه. وإذا تعذر التوصل إلى تسوية الخصومة بهذه الطريقة؛ فإنَّ نفس أو محكمة أخرى تقوم بمسعى آخر للفصل فيه على أساس رعاية مصلحة الطرفين المتخاصمين، والإنصاف لأمة منهما [٥٣].

وهذا ما يؤكد سمو النظام القانوني الدولي الإسلامي في السلم والحرب على حد سواء.

---

(٥٠) «التوحيد»، (ص/ ٢٩١).

(٥١) نفسه، (ص/ ٢٩١).

(٥٢) «التوحيد»، (ص/ ٢٩٣).

(٥٣) «التوحيد»، (ص/ ٢٩٣).

(٢)منظومة فقه سنن الاستخلاف :

الإنسان خليفة عن الله – تعالى – لتنفيذ مراده في الأرض وإجراء أحكامه فيها. هيأه الله – تعالى – لدوره الاستخلافي وأوكل إليه أمانة تعمير الأرض بالعبادة وعمارتها بالخير، حتى يبلغ درجة الكمال الإنساني بالعمل والكدح المستديم استعدادا للقاء ربه.قال – تعالى –: {آمنُوا بالله وَرَسُوله وَأَنفقُوا ممَّا جعلَكُم مُّسْتَخْلَفينَفيه فَالذين آمَنُوا منكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبيرٌ } [الحديد: ٧]. ولاَ يتأتَى فَهم سنَنَ الاستخلاَف ولا تفعيلها إلاَ مَنَ خلاَل الفاروقَي بـ «مأسسة الاجتماع الأمتي»، أو تفعيل الديناميات الداخلية للأمة (٥٤)، وقد وضع لذلك الفاروقي خطة منهجية تحتاج إلى عدة بيداغوجية لتحقيق مقاصدها، وسنقدمها مختصرة على الشكل الآتي:

(أ) لا إسلام دون الأمة: يقول الله – تعالى –: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}. وتبين هذه الآية الكريمة أنَّ المسلَمين مأمورون بأن يشَكلوا منَ أنفسهم أمة، أيَ بنية اجتماعيةَ منظمة علىَ نحو خاص. وتضمن هذا النص القرآني علة الأمر بتشكل تلك الأمة، وهي: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بيد أنَّ هذه العلة هي السبب أو الهدف النهائي المفترض أن تفي الأمة به. وثمة سبب وسائلي، غير نهائي بالتالي لوجود الأمة، وهو حقيقة أن وجودها هو الذي يجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمرا ممكنا. فالأمة هي مصدر حقوق المسلم ووجباته، وهي البنية التي يمكن في سياقها ممارسة تلك الحقوق والواجبات.

وتأسيسا على ذلك قضى النبي – صلى الله عليه وسلم – بأنَّه: «لا يحل لثلاثة مسلمين في فلاة، إلاَ أمَّروا عليهم أحدهم». ذلك أنَّه ما دام هدفهم هو إقامة شعائر الدين وتطبيق الأوامر الإلهية التكليفية، وتحقيق العدالة، وإقامة الحدود، وتحصيل السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة؛ فإنَّه لا مناص من انتظامهم في أمة.

(ب) أمة واحدة لا تتعدد: يقول الله – تعالى –: {إِنَّ هَذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون}، ويقول – سبحانه وتعالى –: {وَإِنَّ هَذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَا تَّقُون}. ومعنى هَذا الأمر الإلهي أنَّ علىَ المؤمنين يجعلوا لأنفسهم نقطة ارتكاز وَحيدة يلتفون حَولها، على هدف واحدَ يعلو على ما عداه، وقيمة مفتاحية تأسيسية تجمع كل أنشطتهم تحت معنى واحد شامل لها جميعا هي: عبادة الله – تعالى –. فالأمة واحدة في كينونتها، تظل واحدة على الدوام؛ لأنَّ الله واحد، وعبادته واحدة، وإرادته المتعلقة بالجنس البشرى كله وبكل مكان وزمان، المبينة في القرآن الكريم والسنة النبوية، والمتبلورة في الشريعة، واحدة. والبشر جميعا سواسية أمامه، وإرادته

(٥٤) «التوحيد»، (ص/ ١٩١).

أفرادًا وشعوبا واحدة بشكل مطلق. فهو – سبحانه – لا يكلف أي شعب أو عرق أكثر أو أقل ممَّا يكلف به كل شعب أو جنس آخر.

(ج.) طبيعة وحدة الأمة:

(١) وحدة الأمة شاملة.

(٢) أمة ذات مضمون ملموس.

(٣) أمة دينامية.

(٤) أمة عضوية.

(د) إمكانية إقامة الأمة:

إيجاد أمة على الشاكلة التي سبق بيانها ليس أمرا ممكنًا وحسب، بل هو الشرط الوحيد للنجاح، بل لصناعة التاريخ. فلم يحدث على مدى التاريخ أن أقيم مجتمع أو دين أو قبيلة أو دولة أو إمبراطورية، أو صنع تاريخ، أو تم إحراز نجاحات، إلا في ظل تحقق روح الأمة بدرجة ما. وكلما تعاظمت درجة الإحساس بها، كلما تعاظم الإنجاز وكان أكثر دواما. وكلما تدنت درجتها كلما كان النجاح عابرا أو الفشل أعظم.

فالإنسان يتحرك في الحياة من خلال أفكاره، وحركة الأفكار هي التي تمثل حركة الحياة؛ لأنَّ حركة هي صورة ما نفكر به؛ لذلك كله فإنَّ التغيير الذاتي على مستوى الطبائع والأفكار والقناعات، هو قاعدة التغيير الاجتماعي والسياسي.فقضايا الاجتماع الإنساني لا تتغير وتتحول إلا بشرط التحول الداخلي – الذاتي [٥٥] – النفسي. فالتعاليم القرآنية واضحة في أنَّ لهذا الكون وحياة الإنسان سننًا وقوانين، هي التي تتحكم في مسيرة الكون، كما أنها هي القوانين المسيرة لحياة الإنسان الفرد والجماعة.

فالإنسان في المنظور القرآني، هو نفحة ربانية استحقت التكريم الذي بوأها أعلى مرتبة في الوجود. أعني: الاستخلاف في الأرض بصريح الآية الكريمة: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٣٠]، أجل ذلكَ استحق الإنسان التكريم بقوله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، وحتى يحقق الإنسان وظيفته على أحسن كان كل ما في الوجود مسخرا لفائدته وكانَ العالم مسرحا لكل فعالياته بصريح آيات قرآنية عديدة منها قول

(٥٥) «أوليات في فقه السنن في القرآن الكريم»، «مجلة البصائر»، محمد محفوظ، (العدد/ ٣٠)، (السنة ١٤)، (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م).

– عز وجل –: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِه إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحج: ٦٥].

(٣) منظومة فقه سنن العمران:

يشير الدكتور رضوان السيد في مقالة [٥٦] له بجريدة الشرق الأوسط إلى أنَّ فقه العمران، يقوم على التالية:

* أولًا: المعرفة الواعية والعلمية بالعلوم الإنسانية وعلوم المجتمع، وهي لدى غير المتخصصين معارف عامة ونسبية، كما هو الشأن في علوم الإنسان والمجتمع والتاريخ. ونحن مأمورون بذلك في القرآن الكريم، لجهة السير في الأرض، والنظر في السماوات والأرض، والنظر في النفس والآفاق. وهي معرفة هادفة بالأمر الإلهي من أجل «الاعتبار»، ومن أجل «الفقه». والاعتبار يتضمن عمليتين: كشف السنن والقوانين والعادات والأعراف، والاعتبار هو القياس والاتعاظ وتصحيح الفكرة والمسلك. أما معنى الفقه في الأصل فهو الفهم. والفهم هو الشرط الأول لتكوين الأفكار أو الفرضيات والنظريات. وتتناول المعرفة الواعية والعلمية التي تحدثت عنها أمرين اثنين بالتحديد ضمن المواصفات السالفة الذكر:

– الأمر الأول: معرفة الديانات والحضارات والمنظومات الثقافية والسياسية الكبرى. وهي معرفة عامة في الأزمنة الماضية، ومعرفة دقيقة بقدر الإمكان في الأزمنة الحاضرة.

– والأمر الثاني في الموضوع، وليس في الترتيب: الاطلاع الدقيق على التجربة الدينية والحضارية والثقافية لأمتنا في التاريخ كما في الحاضر.

وإذا كانت العملية المعرفية الأولى يغلب عليها جانب الاعتبار؛ فإن العملية المعرفية الثانية – أي: معرفة التجربة التاريخية لأمتنا – يغلب عليها جانب الفقه أو الفهم. بيد أنَّ المعرفة هذه بجانبيها تبقى الأساس الذي لا بديل عنه لفقه الحضارة والعمران.

* ثانيا: القول بالاستخلاف والتكليف. فبحسب المقولة القرآنية؛ فإنَّ البشر جميعًا أو الإنسان، مستخلفون من الله الخالق لإعمار العالم. ويعتقد المسلم بمقتضى قوله – تعالى –: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}، مكلف بإعمار العالم في ظل الله وهدايته. وهي فلسفة حسبية للفكر والعمل، تهب المسلم الدافع والإرادة، ليس

---

(٥٦) رضوان السيد، مقال تحت عنوان: «فقه الحضارة والعمران الوظائف والغايات»، (الثلاثاء ٢٨ ربيع الثاني ١٤٣١هـ = ١٣ أبريل ٢٠١٠م)، (العدد/ ١١٤٥٩).

الاحتكار أو السيطرة، بل بمقتضى الأمر الإلهي: {فاستبقوا الخيرات}. فمضمون التكليف هو صنع الخير العام، والاندفاع فيه، بالمعنيين: معنى الدعوة ومعنى العمل في شتى المجالات؛ كل بحسب المجال الذي أهل نفسه له.

* ثالثا: القول بالدعوة، والقول بالتحاور أو تبادل التجارب. فالدعوة لفقه الحضارة والعمران في الداخل الإسلامي. والعمل على التعارف للوصول إلى قواسم مشتركة قيمية وعملية في المجال العالمي. فعندما يدعو فقيه العمران المسلمين الآخرين لاجتراح عملية حضارية متجددة؛ إنَّما ينطلق في ذلك من أمرين: إحساسه بالأزمة، وانصرافه للعمل على تجاوزها. وهو عندما ينفتح على العالم بالتحاور والتعلم وتبادل التجارب تحقيقا لعملية التعارف، فإنَّما يعطي ويأخذ ما يفيده ويفيد الآخرين، ويسعى لشراكة قيمية وعملية.

* ويؤسس الفاروقي لمجموعة من السنن العمرانية والمتمثلة في [٥٧]:

(١) إن مقتضى الإقرار بأنه لا إله إلا الله، هو الإيمان به – سبحانه وتعالى – خالقًا ومالكًا وحكما للوجود كله بلا شريك. ويترتب على هذه الشهادة الإقرار بأن الإنسان خلق لغاية، بما أن خلق الله – تعالى – منزه عن العبث، وأن تلك الغاية هي تحقيق الإرادة الإلهية المتعلقة بهذا العالم الذي تتخذ منه الحياة البشرية مسرحا لفعلها الحر المسؤول.

(٢) ويقتضي ذلك من المسلم النظر إلى الحياة بزمانها ومكانها بعين الجد؛ لارتباط فلاحه أو خسرانه بتمثله للسنن الإلهية المتصلة بالزمان والمكان الذي يحيا فيه. وأمره الله تعالى أن يقوم بتلك المهمة بالتعاون مع إخوانه من البشر تحت رقابة توجيهية مستمرة في ظل التوحيد.

(٣) أساس الأمة، ليس مسألة مولد وجغرافيا ولغة. فهذه العوامل خارج إرادة الفرد، وفى حكم الضرورية. أما الأمة بوصفها أخوة دينية أخلاقية، فهي رابطة حرة بين أفراد بهدف تجسيد عالم القيم، وبالمفهوم الإسلامي التقليدي «تحصيل السعادة في الدارين الدنيا والآخرة»، لأنفسهم وللإنسانية جمعاء. والإنسان لا يولد في تلك الأمة بالصدفة العمياء دون اختيار منه، بل بصفة كونه إنساناً راشداً يختار ويقرر الانضمام إليها. وهى بالتالي ليست جماعة طبيعة، بل هي مجتمع ناشئ عن قرار حر.

(٤) الفن كما حللناه وعرفناه حتى الآن، هو بالضرورة حدس في الطبيعة بحثا عن ما هو ليس منها، أي المتعالي. ولا أحد يشارك الله تعالى في تلك الصفة. وفضلًا عن ذلك؛ فإنَّه لـمَّا كان الجوهر الأول الذي هو الحس الجمالي، معياريًّا وجميلًا؛ فإنَّ عواطف الإنسان تتأثر به على نحو غير عادى. وهذا هو السبب في أن البشر

---

(٥٧) مع الفاروقي ... «في ظلال التوحيد»، د حسان عبد الله.

الجمال، ويعايرون به. فهم حين يرون الجميل في الطبيعة البشرية، يتمثلون الجوهر الأصلي الماورائي المفارق، أضفيت عليها المثالية بدرجة متعالية.

الخاتمة

تُعدُّ هذه الورقة محاولة متواضعة لاستجلاء الفكر السنني في النموذج المعرفي عند الفاروقي، والذي يحتاج مزيد من البحث والدراسة، ونختم هذا البحث بالتوصيات التالية:

* أولًا: إجراء المزيد من الدراسات المتعلقة في الفكر السنني عند إسماعيل الفاروقي خصوصا، وفكر بشكل عام.

* ثانيا: تكوين مجموعات بحثية للقيام بمشروعات بحوث تسهم في تفعيل المنظور السنني في مشاريع المعاصرة.

* ثالثا: تدريس كتابي: «أطلس الحضارة الإسلامية»، و«التوحيد مضامينه على الفكر والحياة» في المرحلة الجامعية لجميع التخصصات والمستويات بمنهجية التكامل المعرفي.